

Mohamed Saba**

محمد سابي*

الكتابات الاستعمارية الإسبانية بشأن الصحراء الأطلسية

Spanish Colonial Writing on the Atlantic Coastal Desert

جواكين كاتيل، رحلات عبر المغرب: سوس وادنون وتكنة (مدريد: الجمعية الجغرافية في مدريد، نشرة النصف الأول من سنة 1879).

طوماس كارثيا فيغيراس، سانتا كروث دي مار بيكينيا، إيفني-الصحراء: منجزات إسبانيا في ساحل أفريقيا الغربي (مدريد: منشورات إف إي، 1941).

إدواردو هيرنانديث باتشيكو، الصحراء الإسبانية، دراسة جيولوجية، جغرافية ونباتية (مدريد: معهد الدراسات الأفريقية، 1949).

خوليو كارو باروخا، دراسات صحراوية (مدريد: معهد الدراسات الأفريقية، 1955؛ 1990، و2008).

عسكرية كُتب أغلبها بمبادرة من أصحابها أو بايعاز من السلطات الاستعمارية. كما أن دراسات وأبحاثاً علمية عدة أنجزت وجرى فيها تناول مجال المنطقة الطبيعي، وكُللت باكتشاف الفوسفات سنة 1947. وطُبعت أول دراسة اجتماعية عن المجتمع الصحراوي سنة 1955، ثم تفاعلت الكتابات الاستعمارية مع المجال الصحراوي، فلامست جوانب كثيرة من مكوناته الجغرافية، وقاربت الحياة الاجتماعية والثقافية للسكان المحلية رغم أنها لم تتوخ في كثير من الأحيان الموضوعية ومحاربة الأحكام

لم يكن الاستعمار الإسباني في الصحراء كما هو الشأن بالنسبة إلى كثير من المستعمرات، آلات حربية وعساكر وبنادق فقط، وإنما كان كذلك جمعيات جغرافية ورحلات استكشافية ودراسات أكاديمية ومختبرات أنتجت معرفة استعمارية غايتها خدمة أجندة الاحتلال والاستغلال. وتشكلت الكتابات الإسبانية بشأن مجتمع الصحراء الغربية ومنطقتها رصيذاً وثائقياً يؤرخ لهذه المرحلة، وهي تشمل الرحلات المختلفة التي قام بها الإسبان إلى الصحراء الغربية، وتقارير

* باحث في تاريخ السياسات الكولونiale في المغرب، رئيس مركز تنمية البحث التاريخي والاجتماعي حول الصحراء، المغرب.

** Researcher in the History of Colonial Policies in Morocco and Head of the Center for Historical and Social Research on the Desert, Morocco.

مغربية عدة رفقة قوات مدفعية الجيش المغربي قبل أن تكلفه الحكومة الإسبانية، وباقتراح منه، القيام برحلة استكشافية إلى السواحل الصحراوية المغربية الجنوبية في الفترة الممتدة بين تموز/يوليو 1864 وآذار/مارس 1865.

ركز كاتيل على دراسة المؤهلات الجغرافية والاقتصادية للمنطقة الواقعة بين وادنون والطرفاية، وتمكّن من القيام برحلتين عبر الساحل البحري بمساعدة من زعيم كليميم آنذاك الحبيب ولد بيروك، الذي كان يتطلع إلى نسج علاقات تجارية مع الأوروبيين، وسلّم تقاريره عن منطقة الصحراء الأطلسية إلى القنصلية الإسبانية. ونظراً إلى حرص السلطات الإسبانية على سرية نتائجها بسبب التنافس الاستعماري المتقد آنذاك بين إسبانيا وبقية الدول الأوروبية، اضطر كاتيل إلى الانتقال إلى فرنسا لنشر جزء من تقاريره بعد أن حصل على موافقة الحكومة بخصوص المواد التي سينشرها ضمن النشرة التي كانت تصدرها الجمعية الجغرافية في باريس، فنشر المقالين باللغة الفرنسية، أولهما في سنة 1869 تحت عنوان: «وادنون وتكنة على الساحل المغربي الغربي»، وثانيهما في سنة 1871 تحت عنوان «وصف سوس»⁽¹⁾. لكن بسبب نشره المقالين باللغة الفرنسية، لم تحظ أعماله بالاهتمام داخل إسبانيا إلا بعد ظهور «الجمعية الجغرافية في مدريد» سنة 1876، ثم «الجمعية الإسبانية لاستكشاف أفريقيا» سنة 1877؛ إذ طبعت جمعية مدريد في سنة 1879 التقارير التي أنجزها تحت عنوان: «رحلات عبر المغرب: سوس، وادنون وتكنة» (*Viajes por Marruecos*) («El Sus, Uad-Nun y Tekna» بعد وفاته في قادس في 13 أيار/مايو 1879، عقب محاولته السفر إلى المغرب من جديد. كما طبع معهد

المسبقة، ناهيك عن خلفيتها المشبوهة وما تخلل مضامينها من طابع استعلائي تغذيه أو هام المركزية الأوروبية. غير أن هذا لا يقلل من أهميتها في استقصاء صورة المجتمع المحلي في الذهنية الاستعمارية وإدراك الأهداف الحقيقية للخطاب الكولونيالي الذي زواج بين شعار الرسالة الحضارية وممارسة الاستغلال.

نحاول في هذه الورقة تقديم نماذج من الكتابات الإسبانية بشأن الصحراء الغربية، وهي نماذج أنتجها أصحابها في سياقات وفترات تاريخية مختلفة من مراحل الوجود الإسباني في المنطقة، وراوحت نشاطاتهم بين مهمات الرحالة المستكشف والضابط العسكري وعالم الجيولوجيا والباحث الأثروبولوجي.

• جواكين كاتيل، رحلات عبر المغرب: سوس وادنون وتكنة (مدريد: الجمعية الجغرافية في مدريد، نشرة النصف الأول من سنة 1879).

Joaquín Gatell, *Viajes por Marruecos, el Sus, Uad-Nun y Tekna* (Madrid: Sociedad Geográfica, 1879).

يُعتبر جواكين كاتيل من الرحالة الإسبان الأوائل الذين كلفتهم الحكومة الإسبانية القيام بمهمات استعمارية سرية في المغرب؛ فهذا المستعرب تمكن في سنة 1861 من الاندساس داخل الجيش السلطاني المغربي متنكراً بزي مسيحي مرتد هارب من الخدمة في الجيش الإسباني وملقباً نفسه بـ«القائد إسماعيل». قام في الفترة الممتدة بين أيار/مايو 1861 وحزيران/يونيو 1862 بتقديم تقاريره إلى القنصلية الإسبانية العامة في طنجة عن الأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان المغرب يعيشها إبان تزايد الضغوط الاستعمارية الإسبانية. ولأجل إنجاز مهمته، تنقل بين مناطق

يستهل كاتيل يوميات رحلته بالإشارة إلى لقائه بالرحالة الألماني غيرهارد رولفس في المغرب خلال استعداده للتوجه نحو الصحراء الغربية. ويبدى إعجابه الكبير برولفس وبمشاريعه الاستكشافية: «إنني أشاركه الأفكار والأحاسيس والتطلعات نفسها. لقد دعاني في رسالة... إلى مرافقته نحو دواخل أفريقيا، فقد كان يستعد للسفر إلى تنمبكتو»⁽³⁾. وفي النص عينه، يعرض كاتيل تفاصيل رحلته نحو الصحراء منطلقاً من الرباط، ومسجلاً أغلب التفاصيل تلك بالتوقيت والوصف الجغرافي الدقيق. كما أنه عزز نص رحلته إلى السواحل المغربية الجنوبية بعدد كبير من الرسومات التوضيحية والخرائط الجغرافية (حوالي تسع خرائط). وأظهرت أعماله دقة كبيرة في الوصف الجغرافي، حيث يؤكد في بداية رحلته أن من الواجب على المستكشف «أن يكون موهوباً في تقديم معارفه الرصينة، وصبوراً في معاناته، ثابتاً وحكيماً، وذا شخصية بعيدة النظر، وأن يتمتع بخفة الحركة. وإلى جانب إتقان لغة أهل البلد، يجب عليه أن يكون ملماً بالرياضيات والهندسة والجغرافيا والتاريخ الطبيعي، وعلم الفلك والطبوغرافيا ورسم الخطوط والمشاهد الطبيعية»⁽⁴⁾. لهذا، فإن نص كاتيل يقدم معطيات مهمة ودقيقة عن المجال الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي للمنطقة الصحراوية التي زارها.

• طوماس كارثيا فيغيراس، سانتا كروث دي مار بيكينيا، إيفني-الصحراء: منجزات إسبانيا في ساحل أفريقيا الغربي (مدريد: منشورات إف إي، 1941).

Tomas Garcia Figueras, *Santa Cruz de Mar Pequeña-Ifni-Sahara: La Acción de España en la costa occidental de África* (Madrid: Ediciones FE, 1941).

«الدراسات الأفريقية» في مدريد رحلات كاتيل في سنة 1949، بعد أن تمكّن غافيرا (Gavira) من العثور على وثائق ومسودات يُفترض أنها بعض فصول التقارير التي كان كاتيل قد سلّمها إلى الحكومة الإسبانية سنة 1865 عن طريق قنصلها في طنجة، ونشرت هذه النصوص بعنوان: «رحالة إسباني في المغرب: جواكين كاتيل (القايد إسماعيل)»⁽²⁾. غير أن دراسة مهمة أنجزها الباحث الإسباني المتخصص بالعلاقات المغربية - الإسبانية فرنسيسكو خافيير مارثينيث أنطونيو (F. J. M. Antonio) ونُشرت سنة 2012 سلطت الضوء من جديد على شخصية كاتيل وكتاباتاته؛ فالباحث عمل على تحقيق نص رحلة كاتيل، مع إضافة دراسة بيوغرافية مهمة عن حياته، معتمداً على التحري التاريخي ومنطلقاً من الكتابات الإسبانية التي أنجزت بشأن هذا الرحالة. وما يميز هذه الدراسة عن بقية الكتابات التي تناولت شخصية كاتيل وأعماله أن صاحبها حاول الابتعاد بقدر الإمكان عن التأويلات الاستعمارية التي سقطت فيها الدراسات السابقة، كما أنه قدّم عمله بأسلوب أكاديمي، ملتزماً ضوابط الكتابة التاريخية الأكاديمية، وتمكّن من جمع عدد كبير من النصوص التي يُفترض أنها كتابات كاتيل عن المغرب والسواحل الصحراوية، ثم أعاد طبع الكتاب بعنوانه الأصلي.

قسّم كتاب كاتيل إلى فصول عدة تتضمن يوميات رحلته داخل المغرب، ومن بينها رحلته إلى وادنون وتكنة في جنوب المغرب، كما تتضمن فصلين خُصصا لوصف مناطق سوس ووادنون وتكنة، ومن الواضح أنهما النصان اللذان سبق أن نُشرا بالفرنسية في باريس.

كانت الصحراء تشكّل بالنسبة إلى فيغيراس جزءاً مهماً من الإمبراطورية الإسبانية، الأمر الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب الذي يوجهه إلى الإسبان: «وخاصة الشباب الذين من خلالهم يمكن إسبانيا أن تستكمل طموحات أسلافها»⁽⁶⁾. كما أنه يشير في مقدمة الكتاب إلى أنه يشارك شرف هذا التأليف مع كل من الكنيسة والجنرال فرنكو، قائلاً: «أريد أن أذكر أنني لا أكتب ما يمكن أن يمس بعقيدة الكنيسة المقدسة أو بمبادئ الثورة الوطنية الإسبانية»⁽⁷⁾.

يؤكد المؤلف أخيراً أن تنمية الاستعمار الإسباني في أفريقيا الغربية لن تتأتى إلا «بتشجيع الدراسات العلمية التي أنجزت بشأن المنطقة، واستكمالها بمنهجية الأخذ بنتائج إنجاز أبحاث أخرى في تخصصات مختلفة تحفز الأوساط الإسبانية على الأخذ بحقائق الأمور بشكل أفضل مما تم استنتاجه في السابق»⁽⁸⁾. في هذا السياق يورد فيغيراس «عددًا كبيرًا من الآثار والمقابر التي تحتاج إلى البحث الأركيولوجي لتسليط الضوء على الماضي. لقد وُضعت خرائط للمنطقة ولكن هذا ما زال غير كافٍ، ويجب استكمال الأبحاث التي بدأت في أيفني مع بعثة هيرنانديث باتشيكو وتوسيعها لتشمل الصحراء أيضاً»⁽⁹⁾.

• إدواردو هيرنانديث باتشيكو، الصحراء الإسبانية، دراسة جيولوجية، جغرافية ونباتية (مدريد: معهد الدراسات الأفريقية، 1949).

Eduardo Hernández-Pacheco, *El Sahara español, estudio geológico, geográfico y botánico* (Madrid: Instituto de Estudios Africanos, 1949).

يتضمن هذا الكتاب المتكون من 808 صفحات دراسات علمية قَدِّمها خمسة علماء إسبان

يُعتبر هذا الكتاب من النصوص الإسبانية المهمة التي كُتبت حول الصحراء عشية قيام النظام الفرنكوي في إسبانيا. ويعود ذلك إلى الكم الكبير من المعلومات التي يتضمنها الكتاب والتي تشمل فترة طويلة من تاريخ الصحراء الغربية وعلاقتها بالاستعمار الإسباني من القرن الخامس عشر إلى حدود سنة 1941. كما أن المسار الشخصي لصاحب الكتاب يضفي على هذا النص أهمية خاصة؛ إذ إنه يُعتبر من المنظرين والمؤرخين الإسبان «الأفريقيانيين» المرموقين الذين تمكنوا من الجمع بين العمل العسكري والكتابة التاريخية؛ فهو أمضى حوالي ثلاثين سنة من حياته في المغرب، ومكّنته تجربته الميدانية من إنجاز عدد كبير من الكتب والمقالات التي أصبحت مرجعاً ضرورياً في مجال البحث والكتابة حول أفريقيا والعالم العربي.

يتكون كتاب فيغيراس من سبعة فصول مقسمة إلى خمسة وعشرين مبحثاً تغطي 356 صفحة. وقد حاول الكاتب من خلالها التأسيس للوجود الإسباني على السواحل الأفريقية الغربية، وربطه ببداية الغزو الإسباني لجزر الكناري، وإنشاء الإسبان حصن سانتا كروث دي مار بيكينيا على الساحل الصحراوي سنة 1476. ثم خصص بقية فصول كتابه للحديث عمّا يسميه منجزات إسبانيا في المناطق الأفريقية الغربية منذ بداية القرن العشرين، والتي يبرر محدوديتها بوجود حركة مقاومة مسلحة تقودها أسرة الشيخ ماء العينين. غير أن الحركة الاستعمارية الإسبانية عرفت، بحسب فيغيراس، تطوراً مهماً في أواسط الثلاثينيات، كما أن تمكن الجنرال فرنكو من تسلّم السلطة بعد الانقلاب على الحكم في إسبانيا «الثورة الوطنية» أعطى دفعة قوية للمشروع الاستعماري الإسباني في غرب أفريقيا⁽⁵⁾.

في الصحراء الغربية بنتائج الدراسات العلمية تلك. ويبدو أن النتائج التي حققها مانويل أليا ميدينا نالت اهتمامًا كبيرًا بحيث استطاع هذا الباحث اكتشاف منجم بوكراع للفوسفات الذي يُعتبر من أحد أهم مناجم الفوسفات في العالم.

• خوليو كارو باروخا، دراسات صحراوية (مدير: معهد الدراسات الأفريقية، 1955؛ 1990، و2008).

Julio Caro Baroja, *Estudios Saharianos* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Instituto de Estudios Africanos, 1955); (Madrid: Ediciones Júcar, 1990), et (Madrid: Calamar Edición y Diseño, 2008).

شكّلت الدراسة التي وضعها الباحث الأنثروبولوجي خوليو كارو باروخا في الخمسينيات أول دراسة اجتماعية أكاديمية متخصصة بشأن مجتمع الصحراء. وقد أنجزها الباحث بإيعاز من الإدارة الاستعمارية⁽¹³⁾، وقام معهد الدراسات الأفريقية في مدريد بنشرها في سنة 1955، وهي تكاد تكون الدراسة الإسبانية الوحيدة في الأنثروبولوجيا في ما يتعلق بالمجتمع الصحراوي.

أتم باروخا دراسته في فترة قصيرة لم تتجاوز خمسة أشهر (تشرين الثاني/نوفمبر 1952 - آذار/مارس 1953)، وتنقل خلال فترة عمله الميداني بين مناطق عدة من الصحراء (ما بين إيفني والطرفاية والعيون والسمارة وبئر نزران)، وتمكن من الاطلاع على سجلات السلطات الإسبانية وأرشيفاتها في المنطقة. كما أن الإدارة الاستعمارية عملت على تسهيل مهمته، فسهرت على تزويده بالمعلومات اللازمة، وكلفت مساعدين مراقبته لأجل الترجمة وتوثيق

متخصصين بمجال العلوم الطبيعية، وهم: إدواردو هيرنانديث باتشيكو؛ فرنسيسكو هيرنانديث باتشيكو؛ مانويل أليا ميدينا؛ كارلوس بيدال إي بوكس؛ إيميليو كوينيا لويث. تُعنى هذه الدراسات بالمجال الصحراوي، فتقدّم معطيات مهمة عن البنية المورفولوجية والجيولوجية للصحراء الغربية، والغطاء النباتي، والسواحل البحرية. وعُززت هذه الأعمال بعدد وافر من الصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم الكارتوغرافية.

يعرض الكتاب الخلاصات التركيبية للأبحاث الميدانية التي قامت بها هذه المجموعة من العلماء الباحثين في الصحراء منذ بعثتها الأولى سنة 1941 برئاسة العالم باتشيكو، الذي يُعتبر من أهم المتخصصين الإسبان في مجال الجيولوجيا حتى لُقّب في إسبانيا بـ«أبي الجيولوجيا الإسبانية». وقد انتقلت تلك البعثة العلمية إلى الصحراء بإشراف من المجلس الأعلى للبحث العلمي وبرعاية المديرية العامة للمغرب والمستعمرات، ونشرت أول أعمالها ضمن منشورات جامعة مدريد سنة 1942⁽¹⁰⁾.

استفادت المجموعة العلمية الإسبانية، بحسب ما تذكره مقدمة الكتاب، من الدراسات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية المتعلقة بالمجالات الصحراوية⁽¹¹⁾، وحظيت أعمالها باهتمام كبير في إسبانيا آنذاك، واعتمدت نتائجها لصوغ الخطوط العريضة للسياسة الاستعمارية التي انتهجتها إسبانيا في الصحراء. في هذا السياق، يصرح بستانتي رامون، عضو معهد الدراسات السياسية في مدريد، بالقول: «يجب أن نخبر العالم أن الرمال ليست هي كل ما تتوفر عليه الصحراء الغربية الإسبانية»⁽¹²⁾، أملاً في الوقت نفسه بأن يُربط مستقبل الوجود الإسباني

الهوامش

(1) Joaquín Gatell: «L'Oued: انظر هذين المقالين، Noun et le Tekna à la côte occidentale du Maroc.» *Bulletin de la société de géographie de Paris*, 5e série, XVIII, 92 (Julio-Diciembre 1869), 257-287, et «Description du Sous.» *Bulletin de la société de géographie de Paris*, 6e série, I, 95 (Enero-Junio 1871), 81-106.

(2) Fernando Ballano, *Exploraciones secretas en África: Exploradores, espías y otros viajeros de incógnito en lugares prohibidos*, historia incógnita (Madrid: Nowtilus, 2013), 87.

(3) Joaquín Gatell, *Viajes por Marruecos*, edición, estudios introductorio y notas de Francisco Javier Martínez Antonio (Madrid: Miraguano, 2012), 79.

(4) Ibid., 85.

(5) Tomas Garcia Figueras, *Santa Cruz de Mar Pequeña-Ifni-Sahara: La Acción de España en la costa occidental de África* (Madrid: Ediciones FE, 1941), 10.

(6) Ibid., 11.

(7) Ibid., 11.

(8) Ibid., 327.

(9) Ibid., 327.

(10) Eduardo Hernández-Pacheco and Francisco Hernández-Pacheco, *Sahara español, expedición científica de 1941* (Madrid: Universidad de Madrid, 1942), 2.

(11) Eduardo Hernández-Pacheco, *El Sahara español, estudio geológico, geográfico y botánico* (Madrid: Instituto de Estudios Africanos, 1949), 5.

(12) Ramon Bastante, «Presencia de España en el Africa Occidental.» *África* 27 (Marzo 1944), 51.

(13) Julio Caro Baroja, *Estudios saharianos* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Instituto de Estudios Africanos, 1955), 1.

(14) Ibid., 2.

(15) ايفانس بريشارد: باحث أنثروبولوجي بريطاني أنجز دراسة أنثروبولوجية حول قبائل النوير في السودان.

(16) Baroja, *Estudios*, 4.

(17) الشيخ ماء العينين: متصوف ومجاهد مغمور أقام زاويته في منطقة الساقية الحمراء. توفي سنة 1910.

المعطيات والتحضير للمقابلات الشفهية. لذلك، انكبّ باروخا على العمل بكل اجتهاد: «لم نُضِع الوقت. هكذا توالى العمل مكثفًا، ويستمر أحيانًا من التاسعة صباحًا إلى التاسعة ليلاً، مع انقطاعات طفيفة. كنا نرغب في الاستفادة من كل شيء، سواء تعلق الأمر برجل أو بطفل يقدم الطعام»⁽¹⁴⁾. ويشير باروخا في مقدمة كتابه إلى أنه استلهم أطروحة الأنثروبولوجي البريطاني إيفانس بريشارد⁽¹⁵⁾ القائلة إن على الإثنوغرافي «دراسة الظواهر بدل التركيز على الشعوب»⁽¹⁶⁾، ولأجل ذلك، حاول باروخا دراسة ظواهر اقتصادية واجتماعية وثقافية لم يسبق للكاتب الإسبان أن درسوها بشكل أكاديمي دقيق، من قبيل القبائل الصحراوية، وأنواع القرابة والبركة والصلاح، والممارسات الزراعية، ومكانة المرأة في المجتمع، والصنائع والموسيقى والشعر الحساني، كما تطرق إلى الحديث عن الشيخ ماء العينين⁽¹⁷⁾ ودعوته إلى الجهاد وتدخله لفض النزاعات والخلافات بين القبائل.. وخصص فصلًا لسرد حوليات المنطقة انطلاقًا من القرن التاسع عشر إلى حدود سنة 1954، فقسم بحثه إلى فصول شملت ما يلي: النظام الاجتماعي التقليدي بالصحراء الإسبانية؛ اقتصاد الساحل؛ من أجل تحليل بنيوي لقبيلة صحراوية أولاد تيدرارين؛ أنماط عيش الرحل؛ حروب الساحل كما يحكيها الرحل؛ التاريخ عند الرحل.

ونظرًا إلى أهمية هذا العمل، أعيدت طباعته في إسبانيا في سنتي 1990 و2008، كما نشر معهد الدراسات الصحراوية في الرباط ترجمة بعض فصول هذا العمل في سنة 2015.